التواصل الحضاري بين المشرق والمغرب العربي من خلال الرحلة

العياشية (ماء الموائد)

بناهض عبد الكريم
كلية الآداب واللغات
جامعة تلمسان

الملخص :

قامت الرحلة العربية بدور هام في إذابة الجليد بين شقي العالم الإسلامي مشرقه ومغربه ، وقد دونت هذه الرحلات خلاصة هذا الالتقاء و التوافق و خصوصا الرحلات التي انطلقت من المغرب العربي و التي كانت وجهتها الحجاز(الرحلة الحجية) ،وتعد رحلة أبي سالم العياشي أحد أهم هذه الرحلات لتجسيدها مفهوم التواصل الحضاري بدقة من خلال حلقات العلم التي عقدها الرحالة بمختلف دول الشرق ،بالإضافة الى الإجازات العلمية التي حصل عليها أو التي أجازها لغيره، من منطلق العالم المنفتح الذي وضع الأسس العلمية مقياسا للحكم على مختلف الظواهر التي تعترضه.

الكلمات المفتاحية: الرحلة – الحج- التواصل –الحضارة –الإجازة.

The Summary

The Arabic trip played an important role in melting ice between two parts of the Islamic World in its eastern and western. Trips had made a summary about the connection and the agreements. Especially, the trips that came from the Northern African Countries to Ell- Hedjaz (the pilgrimage trip). The trip of Abe Salem Ell- Aiachi was one of the important trips that made the concept of the civilian connection, more exactly through circles of science which trippers were made it in different eastern countries. . In addition to this, the scientific journeys that he gained or he gave it for another from opened world; it put the scientific essential pillars as a measure to judge on the different phenomena which obstruct him.

مقدمة:

ارتبط وجود الناس على سطح الأرض بالحركة والتنقل فبفضلهما تمكن من الحصول على قوته و الابتعاد عن الأماكن الخطرة، فهو في رحلة مستمرة يبحث من خلالها عن واقع أفضل لحياته في جميع مجالاتها . و بعد استقراره وتحسن ظروف حياته لم يتخل عن الرحلة والسفر وهذا يعود لغريزة إنسانية أصيلة وهي حب الاستكشاف و اختراق الآفاق.

لقد أصبحت الرحلة مع مرور الزمن ضرورة تعتبر من أهم الوسائل التي أرخت لتاريخ البشرية وفتحت عيونه على عوالم أخرى ، وقد حرص الرحالة فيما بعد على تدوين خلاصة مشاهداتهم وما لاقوه أثناء أسفارهم ، فجاءت أعمالهم حافلة بالمعلومات التاريخية والحضارية ، نذكر من هؤلاء على سبيل المثال الرحالة –هيرودوت – وهوميروس -. ومن العرب اشتهر ابن بطوطة وابن خلدون. والإدريسي و اليعقوبي و العبدري حتى غدت الرحلة فنا قائما له مبادئه وخصوصياته.

إن التراث العربي الجغرافي غني بالدراسات عن مختلف بقاع العالم ويرجع الفضل في ذلك إلى الرحلات التي قام بها العلماء من العرب والمسلمين ، إذ كرسوا حياتهم لتقصي الحقائق والمعلومات عن سائر البلدان فهي تعتبر قناة من قنوات التواصل بين الشعوب قديما وحديثا. وفي هذا الصدد نركز على نوع من الرحلات ألا وهو الرحلات المغاربية الحجازية ونختار منها رحلة أبي سالم العياشي – ماء الموائد- وفق إشكال مفاده: ما هو دور الرحلة العياشية في التواصل الحضاري مع المشرق العربي ؟.

مفهوم الرحلة - لغة و اصطلاحا :

جاء في معجم مقاييس اللغة ما مفاده " رحل : الراء والحاء واللام أصل واحد يدل على مضي في سفر ، يقال : ر يرحل رحلة , ورحل رحيل : ذو رحلة ، إذا كان قويا على الرحلة ، والرحلة الارتحال، و قولهم لما ابيض ظهره من الدواب : أرحل ، فهو من هذا أيضا لا يشبه بالدابة التي عليها رحل، و يقال أرحلت الإبل = سمنت بعد هذا و الراحلة : المركب من الابل سواء كان ذكرا أو أنثى(1).

أما الجوهري في معجمه صحاح العربية عرفها كما يلي :

رحل، الرحل : مسكن الرجل وما يستصحبه من الأثاث، و الرحل أيضا رحل البعير ... والجمع رحال، و منه قولهم في القذف بابن ملقي أرحل الركبان ... و رحلت البعير أرحلة رحلا ، إذا شددت على ظهره الرحل، قال الأعشى :

رحلت سمية غدوة جمالها غضبي عليك فما تقول بجمالها و يقال رحلت له نفسي إذا صبرت على أذاه، و رحل فلان و ارتحل و ترحل بمعنى و الاسم الرحيل، أبو عمر : الرحلة بالضم الوجه الذي تريده(2)،أما المفهوم الاصطلاحي فهي "مجموعة الآثار الأدبية التي تتناول انطباع المؤلف عن رحلاته في بلاد مختلفة، و قد يتعرض البعض فيها لوصف ما يراه من عادات و أخلاق و تسجيل دقيق للمناظر الطبيعية التي يشاهدها او يسرد مراحل رحلته مرحلة بمرحلة أو يجمع بين كل هذا في آن واحد،(3) و أما أحمد الفاضل فقدم تعريفا آخر حيث يقول" هي فن عريق من الفنون النثرية التي ضمنها كتابها أخبار اسفارهم و سياحتهم و مغامراتهم البرية و البحرية و ما انطوى عليه من غرائب و عجائب و ما قاسوه في ثنايا تلك الرحلات من الفظائع و الأهوال و ما شاهدوه في البلدان و الأصقاع و المناطق التي دخلوها من أحوال ساكنيها و عاداتهم و تقاليدهم الاجتماعية و نظمهم السياسية و مظاهر عمرانهم(4)، و تنقسم الرحلة حسب الهدف المنشود الى : الرحلة السياحية- الرحلة العلمية – الرحلة الخيالية – الرحلة الفهرسية – الرحلة الإستكشافية – الرحلة الحجية أو الحجازية...الخ (5) تعتبر الرحلات الحجازية أهم أنواع الرحلات لأن مقصدها كان أسمى ألا وهو أداء فريضة الحج، و قد كان المغاربة سباقون إلى هذا النوع من الرحلة و أخذت شهرتها على ايديهم . فقبل الحديث عن الرحلة الحجازية وجب ان نعرف ما هو الحجاز"؟ الحجاز فيما معناه الحد او الفصل، و لفظ الحجاز عرف قديما منذ أن كان سكان شبه الجزيرة العربية يعيشون أشتاتا يعمهم التفكك السياسي و لا تجمعهم دولة، فهم مجموعة من القبائل استقرت في مناطق معينة غير واضحة الحدود مع تمتع بعض مدنه بالاستقرار مثل مكة و المدينة(6).

و للحجاز مكانة متميزة في تاريخ الإسلام، "ففيه ظهر الإسلام و تثبتت أركان دولته و استقرت قاعدته و فيه عاش الرسول صلى الله عليه وسلم كل حياته و قضى الخمسين سنة الأولى من عمره في مكة المكرمة حين نزل عليه الوحي ...ثم أصبحت قاعدة الإسلام الأولى و مركز المسلمين و منها بدأت الدولة تتوسع حتى شملت الحجاز ...و في الحجاز تقع الكعبة التي يحج إليها المسلمون من شتى بقاع العالم (7) لهذه الأسباب اكتسبت أرض الحجاز هذه الأهمية بالنسبة للمسلمين، فالرابط الروحي المتمثل في أداء فريضة الحج كان محفزا على هذا النوع من الرحلات. إذن فالرحلة الحجازية هي التي يكون" الباعث إليها زيارة البقاع المقدسة و على رأسها مكة و المدينة مهبط الوحي بالإضافة إلى زيارة المسجد الأقصى و زيارة الأولياء و

الصالحين، مما يدفعهم ذلك إلى تسجيل ما يشاهدونه و ما يرونه خلال السفر و يصوغون ذلك في قوالب فنية تخلد رحلاتهم و ذكرياتهم(8) فالحج هو المحرك لهذه الرحلة و أثناء ذلك يحتك الرحالة بالعلماء و يزور الصالحين.

أبو سالم العياشي و رحلته ماء الموائد:

يعد أبا سالم العياشي من أبرز الشخصيات المغاربية التي ذاع صيتها قديما و حديثا فهو" أبو سالم عبد الله بن محمد العياشي ولد في أواخر شهر شعبان 1037هـ/1628م في قبيلة آيت عياش و هي قبيلة بربرية تتاخم بلاد الصحراء من أحواز سجلماسة، و يعتبر أبو سالم العياشي من أبرز علماء الأسرة العياشية فهو الأديب و الرحالة و الفقيه و الصوفي و الداعية الى تعاليم الإسلام السمحة و المحارب للبدع التي استشرت في المغرب في تلك الفترة، تعلم بالزاوية العياشية ثم التحق بالزاوية الناصرية ثم جامع القرويين، من أشهر مؤلفاته: إتحاف الاخلاء بإجازات المشائخ الإجلاء و اقتفاء الأثر بعد ذهاب الأثر-وقد قام برحلات ثلاث :الأولى في شهر ربيع النبوي 1053هـ/1643م و الثانية أواخر ربيع النبوي 1064هـ/1658م و الثالثة و الأخيرة و الموسومة: ماء الموائد و هي أفضل رحلاته دون فيها خلاصة تجربته في الحجاز (9)، و هي تضم شتى أصناف العلوم و المعارف.

و قد كان خط سير الرحلة حيث "انطلق من سجلماسة مرورا بالمغرب ثم الجنوب الجزائري فالجنوب التونسي فطرابلس فالقاهرة فالحرمين الشريفين، ثم انتقل بعد ذلك الى أهم المدن الشامية غزة- الرملة – بيت المقدس – الخليل (10)، يقول العلامة عبد الهادي التازي "و تعد رحلة العياشي من أهم الرحلات المغربية و أكثرها انتشارا لأنها أكثر مادة و أكثر تنوعا، و قد طفق الرحالون من اللاحقين ينقلون عنها دون أن يعودوا إلى مصادر أخرى(11)، و هذا ما أكد عليه في بداية رحلته حيث أقر بأنها لن تكون مجرد وسيلة للترفيه فقط و إنما ميدان خصب لشتى المعارف حيث يقول "و قصدي إن شاء الله من كتابة هذه الرحلة أن تكون كتاب علم لا كتاب سمر و فكاهة و إن وجد الأمران فيهما معا فذلك أدعى لنشاط الناظر فيها،(12) و قد راعى في رحلته مستوى القارئ و طموحه العلمي وهذا هو السر وراء التنوع المعرفي لهذه الرحلة.

كان وراء هذه الرحلة رغبة قوية لدى أبي سالم لزيارة البقاع المقدسة رغم ألم الغربة و الفراق الذي قد يعانيه أثناء ذلك فهو يعزي نفسه في بداية الرحلة بأبيات شعرية حيث يقول :

ذريني ارد ماء المفاوز آجنا حيث ماء للكرام معين

دعيني أكثر حاسديك برحلة إلى بلد فيها الرسول دفين(13) ،و إن من بين ما وضعه هدفا لرحلته "ما يشترك في معرفته عام الحاج وخاصهم من أوصاف المسالك وتعداد المراحل وأسماء البلدان و ما يضاهي ذلك مما لا تطمح إليه عيون الفضل و ترتاح لذكرهم أهل النبل من لقاء المشايخ الفضلاء و حاضرة الأدباء و النبلاء و مباحثة الأذكياء و زيارة الأتقياء(14).دور الرحلة العياشية في التواصل الحضاري مع المشرق:

تعتبر الرحلة جسر للتواصل مع الآخر سواء كان هذا الآخر ينتمي إلى الحضارة نفسها أو إلى حضارة مغايرة فهي وثيقة أدبية تعرض بالوصف و المعاينة أحوال المجتمعات التي ارتحل صاحب الرحلة و تكشف عن طبيعة الوعي الإنساني بالآخر.

إن مصطلح التواصل الحضاري ينقسم الى شقين الأول التواصل: و الذي نقصد به ربط علاقات بين شعوب مختلفة أو بين أفراد الشعب الواحد عن طريق الحوار و الثاني الحضاري : نسبة الى الحضارة التي مقياس رقي الدولة، و الحضارات البشرية " سلسلة متصلة الحلقات تأخذ كل واحدة منها بعضد الأخرى و لا يمكن ان تنفصل هذه الحلقات و إلا لوقف العلم و انتهى إلى حيث ينتهي الاتصال بينهما و ذلك خلافا لما يراه "شبنجلر" من أن كل ثقافة في تركيب عضوي من نوع خاص لا صلة له بالثقافات التي جاءت قبله أو الثقافات التي تجيء من بعده. (15) فانفتاح الحضارة على نفسها و غيرها ينفي عنها التقوقع و التعصب، فكل حضارة تستفيد من السابقة لها. فأفراد الحضارة الإسلامية سابقا بنوا علاقاتهم مع الحضارات الأخرى على أساس التعارف الذي يتضمن تجاوز الذات من اجل بناء الجسور و التواصل مع الآخرين، فهذه نظرة شمولية لعملية التواصل الحضاري في إطارها العالمي و قد أعطت الحضارة الإسلامية أنموذجا له من خلال انفتاحها على الحضارات المجاورة.

و هنا ينبغي الإشارة إلى نقطة مهمة و هي أن اتساع رقعة الحضارة العربية الإسلامية و خاصة في الجزء الغربي اي المغرب العربي، إذ أن هذه المنطقة كانت لاحقة في الفتح الإسلامي و الفاتحون الأوائل عندما جاءوا لهذه المنطقة تواصلوا مع ثقافة مختلفة و هي ثقافة السكان الأصليين الأمازيغ، فقاموا بتعريبهم و أصبحت المنطقة فيما بعد قطبا حضاريا متميزا ..مما يجعل حتمية التواصل الحضاري بين المغرب و المشرق ضرورة ملحة حتى يتسنى تذليل نقاط الاختلاف بينهما. "و لا ريب أن الرحلات كانت بمثابة مصادر شاملة سجلت فيها جوانب مختلفة فيها يخص الجوانب الحضارية المختلفة على أزمنة متتالية، فالرحلة تتطلب اتساع المعارف و تنوعها، و هي تستند الى التاريخ، و رصد المظاهر الاجتماعية و الاقتصادية و السياسية غير المألوفة، فهي ليست أداة معرفية فحسب بل

تتعداها الى مهام حضارية، (16) و من النقاط التي ساهمت في التواصل الحضاري مع المشرق في الرحلة العياشية.

نذكر الفكر النقدي لدى العياشي :

أثناء اتصال العياشي بالمراكز العلمية على غرار مصر المدينة...أثار انتباهه مجموعة من السلوكيات و المعتقدات الباطلة، فيحاول رد الأمور الى نصابها و خصوصا في قضايا الشريعة الإسلامية حيث يهتم بصحة الأحاديث التي من خلالها تصوب سلوكيات الناس و فقها(17)، فقد حرص على رد الكثير من المعتقدات الخاطئة و الأفكار الضالة وفق منظور سني معتدل سواء ما تعلق منها بالديني او الاجتماعي او الاقتصادي، رغبة منه في توحيد الصورة بكل موضوعية. و على هذا الأساس لم يكن النقد الذي وجهه العياشي لأجل النقد فقط بل كان الغرض إبراز نقاط الخلل في المجتمع الإسلامي بغرض إصلاحها، و هذا انطلاقا من رؤيته للعالم الإسلامي و كونه تحت لواء الاسلام الذي يجمع و لا يفرق.

و قد لجأ الرحالة في بعض الأحيان الى ما يسمى بالسخرية في مقام انتقادهم للظواهر المختلفة، أو العين الساخرة، و هي "كمحسن بلاغي و استراتيجية خطابية تجعل من المحتمل أهم انشغالاتها، و للإجابة عن كيفية تبين المحتمل في الخطاب الساخر نشير مع سعيد علوش إلى أن السخرية تتمثل في منهج جدلي يعتمد على الاستفهام بمفهومه البلاغي، أو هي التعبير بلغة ذات نزوع متعارض(18)،فمثلا يوظف العياشي هذا المحسن البلاغي فيقول حين خروجه من بلاد اوقروت "و لولا أن هذه القرية في مثل هذه المفازة ما حسن تسميتها قرية، إذ ليس فيها الا نخلات معدودة قد يبس أكثرها، و بقيت جدرات تسفي عليها الرياح و حجرات من جريد النخل، و عرش من الجريد مرفوعة من الأرض بمقدار القامة يبس فيها ثمر ذلك النخل،إذ لا يقدرون على وضعه على الأرض لئلا يغلب عليه الرمل فيذهب أدراج الرياح(19)، فتعبيره الساخر لا يعبر عن ازدراء للمكان لكنه أسلوب يغلب عليه الطابع الأدبي المشوق ليعطي صورة عن المكان بوضوح.

أ-نقد المعتقدات الدينية:

لقد دون العياشي في رحلته أفكار تتناسب مع شخصيته العالمة الورعة، فانتقد الضلالات التي سادت المجتمع الإسلامي شرقا و غربا رغبة منه في توحيد الرؤى الدينية بين المشرق و المغرب مما يفتح آفاقا أوسع للتواصل بين القطبين، نذكر على سبيل المثال مشهدا أثار انتباهه و هو بالديار التونسية

حيث يقول: "و ماتت في الركب في تلك الليلة امرأة موسرة من أهل تونس و كانت لها محفة رفيعة تحمل فيها، فلما ماتت أوسعوا في حفر قبرها و دفنوها بمحفتها و ذلك غلو و بدعة و تضييع مال، فان المحفة لها مال و قيمة و حضر أمير تونس وكبراؤهم ولم ينكر ذلك احد"(20)، و يقر بأن هذه البدع ليست حكرا على مجتمع معين او بيئة معينة. فلم يقدم أبا اسالم جهة من جهات العالم الاسلامي التي شملتها رحلته باعتبارها مركزا صحيحا و مثالا صافيا للعلم و العمل أي انه لم يتحيز لمنطقة بل بدا متحليا بموضوعية التي ورائها شخصية الرحالة العالم(21)، و يورد بعض جهالات العامة حيث يقول: "حكى لي بعض المجاورين أنه وُجد في بعض المواسم رجل مع امرأة في الحرم الشريف فحُملا إلى الحاكم فشهدت البينة أنها زوجته و قيل له: ما حملك على ما فعلت؟ فقال له: إنه لا ولد لنا فرجوت أن تحمل المرأة ببركة هذا الحرم فعُذر بجهله و لم يعاقب(22)، مما يعتبره تعد صريح على أحد الحدود و تساهلا في تطبيق الاحكام الشرعية، و في موضع آخر ينتقد بعض الائمة و جهلهم بقواعد خطبة الجمعة "....و دخلنا للمدينة لحضور صلاة الجمعة و صلينا بجامع يسمى جامع المالكية، و خطب الخطيب بخطبة أكثر فيها اللحن و الخطأ و التحريف و التقديم و التأخير مع إدغام أكثر حروفها حتى كأنها همهمة، فكنت أتخوف ألا تصح لنا جمعة معه ان كانت صلاته كخطبته(23)، و الملاحظ أن العياشي حريص على ذكر الأسباب الموضوعية وراء الانتقادات التي يوجهها، ليس أن الغرض المرجو هو التقويم لا مجرد النقد فقط، و هذا يجعل منه شخصية مرنة يقبل الناس على شتى أفكارها بكل أريحية.

النقد الاجتماعي في الرحلة العياشية كحلقة تواصل:

كان للملمح الاجتماعي في الرحلة العياشية النصيب الأكبر بحكم معاشرة العياشي لسكان المشرق و أهل الحجاز خصوصا ، و يورد خصائص بعض المجتمعات من خلال معاينته لها، فيقول عن المجتمع المصري، "و بالجملة فمصر أم البلاد شرقا و غربا لا تستغرب شيئا مما يحكى منها من خير أو شر و مصداق ذلك ما حدثني يه بعض أصحابنا من التجار في سنة أربعة وستين قال :لما دخلت مصر في حدود الخمسين سكنت بعض الوكائل و كان من قدر الله ان اجتمعنا في محل واحد جماعة من فلان و فلان تجار و فلان طالب علم و فلان ممن يليق الى طريق الفقر و فلان ممن يميل إلى المجون... فيقول التاجر : ما رأينا مثل هذا البلد في التجارة فأهلها كلهم تجار، و يحكي خلال ذلك حكاية ما شاهد، و يقول الفقيه مثل ذلك و الفقير مصل ذلك و ذو المجون مثل ذلك، و ما ذلك إلا كثرة أجناس الناس فيها فمن طلب جنسا وجد منه فوق ما يظن، فيظن أن أهل البلد كلهم كذلك(24)، و قد مكث في الحجاز لفترة لا بأس بها، و قد كان حريصاً على الإشارة إلى الخلل الذي يعاينه حتى لو كان بسيطا، و قد أورد بعض العادات الاجتماعية المستحبة لسكان الحجاز كقوله : "مما أنعم الله به على أهل الحجاز هذا البُن لأنهم ضعفاء

فقراء في الغالب و الناس يقدمون عليهم من الآفاق و الإنسان لابد له من طعام يقدمه لمن دخل عليه و لا قدرة لهم على تكلف ذلك لكل جديد يدخل عليهم(25)، هذه الملاحظة تدل على احتكاك العياشي للمجتمع الحجازي و غوصه في أعماقه.

و يتحدث العياشي عن المرأة المدينية و ميولها نحو البذخ و الترف فيقول: "ولقد أخبرت أن للنساء عليهم عادة يسمونها الشخشخة و هو ما تشتري به المرأة ما تشتهيه من الأزهار فربما بلغ ذلك ريا لأكل يوم (26)، و هو يعيب عليها إسرافها في الزينة و في الشكليات، و من الآفات الاجتماعية الخطيرة التي سجلها العياشي نذكر آفة الرشوة التي وجدت في الوضع السياسي و الاقتصادي و الاجتماعي الذي ساد خلال القرن الحادي عشر و التي مست جميع المهن بما فيها المهن الشرعية حيث يقول: "و الحاصل أن المناصب الشرعية كلها في البلاد المشرقية حجازا و مصراً و شاما من إمامة و خطابة و آذان و إقامة و قضاء و فتوى و شهادة.. إنما تُنال بالشراء من الولاة (27)، و الواقع أن رحلة العياشي تقدم فكرة واضحة عن الواقع الاجتماعي في العالم الإسلامي مشرقه و مغربه خلال القرن الحادي عشر.

التواصل الصوفي في الرحلة العياشية:

يعد أبا سالم العياشي فقيهاً عالماً متّبعاً نهج التصوف و هذا يعود إلى نشأته الصوفية التي حصل عليها من الزاوية العياشية "و تقع الزاوية العياشية أو زاوية سيدي حمزة كما تسمى اليوم على ضفاف أحد روافد نهر زير جنوبي مدينة تيدلت، و الملاحظ طبيعياً أنها محصنة بحدود جبلية تمثلها من الشمال الغربي السفوح الجنوبية الشرقية لجبل العياشي و من الجنوب الغربي قمة جبل أفداي... أما طريقة الزاوية العياشية فكانت شاذلية و شيوخ محمد بن أبي بكر كلهم شاذليون و قد تأصلت هذه المبادئ لدى أبناء الزاوية العياشية و على رأسهم أبو سالم(28)،الذي سار على نهج الزاوية في طريقتها الصوفية و لم يحد عنه.

تتجلى شخصية أبي سالم المتصوفة في كونه كان حرصاً على تنقية النفس و الرقي بها إلى معالم الكمال و الطهر و أبو سالم "متصوف قوي الشخصية له نظرية خاصة في الحياة و في السعي إلى المناصب العليا و في المال، و بعض هذه الاتجاهات واضح في سلوكه و من خلال بعض رسائله و مؤلفاته و من ذلك ما كتب إلى صديقه و تلميذه عثمان بن علي اليوسي من طرابلس واعظاً إياه بقوله: "إياك و الاهتمام بالرزق و الخوف من الخلق فإنهما أصل كل وهن في الدين وضعف في اليقين، فإن الأول يوجب الشك في المقدور وفتور في النفس.. (29) و العياشي يراعي في سلوكه الصوفي موافقة السنة رغبة منه في توحيد الرؤى حول الغاية من التصوف وجعل الكتاب والسنة مصدر التشريع ومحل الاتفاق وعدم الاحتكام إلى الأهواء المختلفة.

قام أبو سالم العياشي بدور إيجابي في الحركة الفكرية بين المغرب والمشرق "و قد مكنته تجاربه من جمع معلومات متنوعة عن أحوال البلدان التي زارها اجتماعياً و تاريخاً إلى جانب الحياة الفكرية التي مثلت المحور الأساسي في علاقته المشرقية(30) ،و يتضح ذلك من خلال حرص أبي سالم على معرفة كل إنتاج جديد في ميدان التأليف فكان أول من أدخل كتاب (نسيم الرياض في شرح شفا القاضي عياض) إلى المغرب بعد أن وعد المثقفين و المهتمين المغاربة بإحضاره"، في ربط لأواصر المعرفة بين القطرين مشرقه ومغربه.

إجازات أبي سالم و دورها في التواصل الحضاري

كان من اهتمامات أبي سالم أن يحصل على أكبر قدر من الإجازات من العلماء المشارقة و المغاربة، و الإجازة هي "إحدى طرق التحمل و الرواية عند المحدثين من أهل العلم لذا تنوعت في معناها و أدائها باعتبارات لا تخرجها عن معنى تحمل العلم عن الشيوخ في الجملة (31)، و هي في اصطلاح العلماء إذن المحدث للطالب بأن يروي عنه كتابا من كتب الحديث أو غيرها من دون أن يسمع منه أو يقرأ عليه و هذا أصل معناها عند الاطلاق(32)،و لا يصل طالب العلم لهذه المرتبة إلا بعد مجالسة العلماء لفترة طويلة يثبت من خلالها جدارته و أحقيته بالإجازة، فهي شهادة اعتراف بالقدرة العلم و الإجازة لفظا و معنى "للحفاظ على الإسناد و اتصاله و تسلسل رجاله و الانتساب لكتب السنة و غيرها، فكانت معيارا لذلك و عنوانا على الطبقات و اللقي و المعاصرة وغيرها من تحاسين الرواية و أفانين الاجازة(33). فهي تعطي لطالب العلم الحق في الاجتهاد في المسائل الفقهية .

كان مما يسعى إليه طالب العلم قديما هو الإجازة، فكانت في الصدر الأول مقرونة بالعلم حلا و ترحالا فلا يذكر العلم إلا ذكرت، و لا يعرف العالم إلا اذا عرفها، و لا يعرف الحق من الباطل إلا إذا صح سندها.. (34) ففضلها يكمن في إثبات السند و التأكد من صحة المرويات و مالكها يملك الأهلية للقيام بهذه المهمة الجليلة .

فهي وسيلة من وسائل الأخذ و التحمل تكون بأشكال مختلفة شفوية وكتابية عامة و خاصة نثرية و نظمية، و لا تنال إلا بعد استيفاء شروطها أملا في ربط الصلات الثقلفية بين الشرق و الغرب، و لأن ذلك يعتبر مظهرا من مظاهر النبوغ العلمي كانت الإجازات التي تحصل عليها كبيرة خصص لها فيما بعد كتابا خاصا سماه اتحاف الأخلاء بإجازات المشايخ الأجلاء، و سوف نستعرض أهم هذه الإجازات التي حصل عليها العياشي .

نذكر من الشيوخ المشارقة الذين أجازوا أبا سالم الشيخ إبراهيم بن حسن الكوراني الشهرزوري و كان له اهتمام بالغ بالرواية و حفظ الأسانيد و استجاز محمد بن رسول الشهرزوري من أئمة الفقه المالكي بالمدينة المنورة(35)، كما أخذ عن "أحمد بابا التمبكتي ذكر العياشي أنه لقيه ببسكرة و لقنه الذكر و أجازه كما لقيه بالأسكندرية، كما أجازه الشيخ ياسين بن محمد بن غرس الدين الشافعي الأنصاري الخليلي من المدينة المنورة، و عمر بن عبد القادر المشرقي و هناك العديد من الإجازات لعلماء مشارقة و مغاربة لا يتسع المقام لذكرهم (36).

هذه الإجازات المختلفة التي حصل عليها العياشي تنم عن رغبة في التوفيق بين علوم المشرق بحكم أسبقيته الحضارية و علوم المغرب باعتبارها منطقة لحقت الركب الحضاري، فهو لا يرى تعارضا بينهما بل يرى التكامل في التوفيق بينهما، و هذا ما يفتح الطريق أمام المثقفين في القطرين الى انتهاج نفس الاسلوب في التعامل. و قد أجاز العياشي العديد من طلبة العلم خاصة في المدينة و مصر.

دور أبي سالم في ربط الصلات بين المشرق و المغرب:

قام أبو سالم بدور إيجابي في حركة فكرية بين المغرب و المشرق و أضاف أثرا طيبا الى سلسلة العلاقات الثقافية بين البلدان الاسلامية المختلفة، و قد مكنته تجاربه من جمع معلومات مختلفة عن أحوال البلدان التي زارها اجتماعيا و اقتصاديا و ثقافيا، إلى جانب الحياة الفكرية التي مثلت المحور الأساسي في علاقاته المشرقية خلال القرن 17 م و نستطيع أن نبرز مجالات هذه المشاركة من خلال الأمثلة التالية:

أ-حرص أبو سالم على معرفة كل انتاج أدبيِ جديد في ميدان التأليف، فكان أول من أدخل كتاب "نسيم الرياض في شرح شفا القاضي عياض"، بعد أن وعد المثقفين و المهتمين المغاربة بإحضاره و سهر بنفسه على استنساخه.

ب- نقل أبو سالم عددا من رسائل الشيخ إبراهيم الكوراني في مسألة الكسب، و قد أثارت مناقشات طويلة بين علماء فاس و المدينة المنورة، و ألف من أجل الرد على أقوال الشيخ الكوراني، كل من الشيخ محمد بن عبد القادر الفاسي و ولد عمه السيد المهدي بن أحمد الفاسي و تلطفا في إظهار مخالفتهما لآرائه، بينما تشدد بعض المغاربة وانتصروا لآراء علماء فاس"

ج- أثارت مسألة التبغ ضجة في المغرب منذ مستهل القرن 17م، فسجل أبو سالم الكلام حول الموضوع، فالشيخ صفي الدين القشاشي أحد رجال العلم بالمدينة، يميل إلى كراهية استعمال الدخان، في حين أن الشيخ عبد الكريم الفكون القسنطيني يتصدى لمن يميل الى الإباحة و قد ألف من أجل ذلك رسالة

سماها (محدد السنان في نحور إخوان الدخان)(37). هذا الأخذ و الرد في المسائل العلمية و الفقهية المثارة آنذاك يدل على نشاط فكري كان للرحالة يد طولى فيها، فأبو سالم كان حريصا على غلق الفجوة الثقافية بين المشرق و المغرب العربي من خلال مراسالاته و مناظراته المختلفة.

ما يمكن استخلاصه بعد استعراض الدور الذي قام به أبو سالم العياشي في التواصل الحضاري مع المشرق ما يلي:

أن الرحلات المغاربية الحجازية كانت بحق جسرا عبرت من خلاله ثقافة المغرب الى المشرق العربي و نقلت ثقافة المشرق إلى المغرب العربي، فقد مدت جسور التواصل بين شقي العالم الإسلامي.

لقد رأى أبا سالم العياشي أنه من الواجب على العالم الحقيقي أن يطلب العلم من معينه الأصلي و من الشيوخ ذوي السبق، فكانت رحلته حافلة بالمسائل العلمية المختلفة، حيث جمع بين علوم المغاربة و المشارقة خصوصا في المجال الفقهي و الصوفي، حتى أنه خصص من وقته للتدريس في البلاد المشرقية، في تواصل حضاري حقيقي بين المغرب و المشرق العربي. و ما الإجازات التي أجازها لغيره خير اثبات لهذا الدور.

أن الرحلة العياشية حافلة بالعديد من المسائل العلمية المختلفة التي تحتاج الى من يميط اللثام عنها، و المجال مفتوحا أمام الباحثين للقيام بهذا الدور.

الهوامش

[1] أبي الحسن احمد ابن فارس-مقاييس اللغة- تحقيق عبد السلام محمد هارون-دار الفكر –دط –دت مادة رحل

[2] أبو نصر الجوهري – الصحاح- تحقيق أحمد عبد الغفور عطار- دار العالم للملايين – بيروت –دط 1987- ج6 مادة رحل

[3] مجدي وهبة وكامل المهندس- معجم المصطلحاتى الأدبية في اللغة والأدب- مكتبة لبنان – ط2 1984- ص17

[4] أحمد الفاضل – تاريخ وعصور الأدب العربي – دار الفكر اللبناني

[5] عواطف يوسف تواب – الرحلات المغربية والأندلسية- الرياض – دط -1996ص 30.

[6] ينظر حسين نصار – أدب الرحلة – الشركة المصرية العالمية للكتاب- ط1 1990.

[7] صالح أحمد العلي – الحجاز في صدر الإسلام – مؤسسة الرسالة –بيروت – ط1- 1990ص 07

[8] مرجع نفسه ص 08.

[9] أبو سالم العياشي- اتحاف الأخلاء بإجازات المشائخ الأجلاء- دار الغرب الإسلامي – ط1 1999م- ص25.

[10] مصدر سابق ص:25.

[11] ينظر عبد الهادي التازي-رحلة الرحلات-

[12] أبو سالم العياشي- الرحلة العياشية–تحقيق سعيد الفاضلي –دار السويدي للنشر والتوزيع-الإمارات-ط1 2006-ص02

[13] المصدر نفسه ص:52-53.

[14] المصدر نفسه ص:53.

[15] سعيد الدين صالح- التواصل الحضاري والحفاظ عاى الذاتية- دار الصحوة للنشر والتوزيع- ط1 2005 ص:24-25.

[16] ينظر عواطف بنت محمد يوسف نواب-كتب الرحلات في المغرب الاقصى مصدر من مصادر تاريخ الحجاز-دار الملك عبد العزيز-الرياض 2008-ص 20-21.

[17] ينظر الحسن الشاهدي- ادب الرحلة بالمغرب في العهدالمريني- منشورات هكاظ- ج1 دط دت ص 587.

[18] عبد النبي ذاكر- العين الساخرة – المركز المغربي للتوثيق والبحث في أدب الرحلة – ط1- مارس 2000م- ص :10-11

[19] ابوسالم العياشي- الرحلة العياشية –ج1 ص .107

[20] المصدرالسابق- ص :15

[21] المصدر نفسه ص 15.

[22] المصدر نفسه ص 18

[23] المصدر نفسه –ص-114

[24] مصدر سابق-ص :222.

[25] المصدر نفسه ص:122

[26]. المصدر السابق ص: 22

[27] المصدر نفسه282.

[28] أبو سالم العياشي – اقتفاء الاثر بعد ذهاب الاثر – تحقيق نفيسة الذهبي- منشورات كلية الاداب والعلوم- الرباط – ط1- 1996م- ص 21- 22.

[29] المصدرالسابق ص56.

[30] أبو سالم العياشي – الرحلة العياشية ص: 115.

[31] ذياب بن سعد آل حمدان الغامدي- الوجازة في الاثبات والاجازة –فهرسة الملك فهد الوطنبة –الطائف –دط –1428هـ-ص.21

[32] المرجع نفسه –ص 22.

[33] المرجع نفسه –ص 22.

[34] المرجع نفسه ص 27.

[35] ابو سالم العياشي – اتحاف الاخلاء ياجازات المشائخ الاجلاء- ص 68 69

[36] المصدر نفسه ص:69.

[37] ينظر ابو سالم العياشي- اقتفاء الاثر بعد ذهاب الاثر –ص 57-58-59